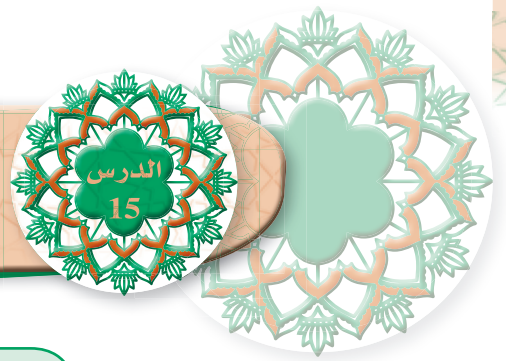


نظريّة المعرفة في الفلسفة الإسلامية: مصادرها وحدودها



أهداف الدرس

1. أن أتعرف مصادر المعرفة وأصولها في الفلسفة الإسلامية؛
2. أن أتبين حدود المعرفة ومجالاتها في الفلسفة الإسلامية؛
3. أن أتمثل فضيلة المعرفة في بناء مواقف وسلوكي .

تمهيد

المعرفة تفيد البشرية فتحا علميا جديدا، وطاقة إبداعية منتجة ومتجددة، يزداد المطلع عليها ثقة بنفسه وبقدراته: حضورا، واسهاما، وإنتاجا، وقد تعرفنا في الدرس الماضي على المعرفة في الفلسفة الإسلامية: مفهومها وموضوعها وغرضها، وسيتناول هذا الدرس مصادر المعرفة وأصولها وحدودها. فما مصادر المعرفة؟ وما أصولها ومرتكزاتها؟ وما حدودها ومجالاتها؟

نص الانطلاق

يقول الإمام الغزالي: «ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة- اليقين- إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات. فلا بد من إحكامها أولا لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أمني الذي كان من قبل في التقليديات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه، ولا غائلة له؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشك نفسي فيها فأنتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح لي نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة

والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك . . . وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته ، فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات . . . » .

[المنقذ من الضلال ، ص 83-84 بتصرف]

الفهم

استخلاص المضامين :

– أستخلص من النصين مصادر المعرفة ، وأدوات تحصيلها ، وحدودها في الفهم والإدراك .

الشرح :

– **الحسيات**: المعارف المستندة إلى الحس .
– **الضروريات**: المعارف الضرورية هي التي لا تحتاج إلى نظر وتأمل .

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين :

المسألة الأولى : مصادر المعرفة في الفلسفة الإسلامية

مصادر المعرفة هي أصولها وطرقها ووسائلها؛ ذلك أن مصدر الشيء هو أصله ومنبعه ، وتأسيسا على كلام الإمام الغزالي في النصين فإن مصادر المعرفة وطرقها هي :

1- الوحي: هو أساس المعرفة الأول عند المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل 89]؛ فالقرآن الكريم بالإضافة إلى كونه كتاب هداية وإرشاد ، ودعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، هو – كذلك – مصدر من مصادر المعرفة الإنسانية ، وطريق الصواب والسداد فيها ، فالمعرفة الحاصلة بالوحي معرفة يقينية ، يقول الإمام الغزالي : « وكيف يهتدي إلى الصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر » . [الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 2]

2- العقل: وهو القوة المتهيئة لقبول العلم. ويقال للعلم الذي يستقيده الإنسان بتلك القوة: العقل أيضاً؛ ولهذا قيل: «العقل عقلان، فمطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع» [بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز ابادي 85/4] قال الجرجاني: «والعقل الهولاني هو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات وهي قوة محضة خالية عن الفعل» [التعريفات، ص 196] قيل: «وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عما لا يحسن» [بصائر ذوي التمييز، 85/4] فالعقل مصدر من مصادر المعرفة، وأداة للتمييز بين الحق والباطل، والبرهنة والاستدلال على الصحيح من الفاسد، فالعقل المهتدي بالوحي ميزان للمعرفة ومعيار ضابط لصحتها من فاسدها، يقول الإمام الغزالي: «فقد علمتم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول، لتكون القلوب فيه أسرع إلى القبول، وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلاً، والمنقول تابعا ورديفاً، فإن ذلك شنيع منفر، وقد أمركم الله سبحانه بترك الشنيع والمجادلة بالتي هي أحسن، وإياكم أن تخالفوا الأمر، فتهلكوا وتهلكوا، وتضلوا وتضلوا» [القسطاس المستقيم، ص 81]

3- الحدس: -الظن والتخمين- وهو: «سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب، ويقابله الفكر، وهو أدنى مراتب الكشف» [التعريفات 112/1]، فالمعرفة الحدسية هي «ما لا يحتاج العقل في جزم الحكم فيه إلى واسطة بتكرار المشاهدة» [التعريفات 112/1]، وهي معرفة تدرك بالحاسة وهي: «القوة التي بها تدرك الأعراض الحسية، والحواس: المشاعر الخمس، يقال: حسست وحسيت وأحسست، وأما أحسسته فحقيقته: أدركته بحاستي، وأحسست مثله» [المفردات في غريب القرآن، ص 231 بتصرف]، فالمعرفة الحدسية ظنية وليست يقينية، وفي المعرفة الحسية يقول الغزالي: «ثم فتنشت عن علمي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة (اليقين) إلا في الحسيات والضروريات... فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها فانتهي بي طول التشكك إلى أن لم تسمح لي نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً». [المنقذ من الضلال، ص 83-84]

4- الذوق والتجربة الصوفية -المعرفة الصوفية- يقول الإمام الغزالي في تعريف المعرفة الذوقية: «والتحقيق بالبرهان علم، وملابسة عين تلك الحالة ذوق، والقبول من التسامح والتجربة بحسن الظن إيمان. فهذه ثلاث درجات: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الْبَرَّ عَمَّا مَنُوا مِنْكُمْ وَالْيَقِينَ أَوْثَرُ الْعِلْمِ حَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة 11] [المنقذ من الضلال، ص 142-143] وعن أهمية هذه المعرفة يقول: «فعلمت يقيناً أنهم- الصوفية- أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك». [المنقذ من الضلال، ص 133]

المسألة الثانية: حدود المعرفة الإنسانية في الفلسفة الإسلامية

العقل قوة مدركة في الإنسان تميزه عن سواه من الكائنات، وتجعل منه مخلوقا مسؤولا عن أعماله، على أساس قدرته على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبح، والقرآن الكريم يطلق ألفاظ القلب أو الفؤاد أو اللب أو النُّهى على الأداة التي تقوم بوظيفة التعقل، أو الربط وإيجاد العلاقة بين الأسباب والنتائج؛ فالعقل مناط التفكير، وأداة التمييز، ووسيلة الفهم والتبيين، ومحور حركات إنجاز الأفعال، وفيصل التفرقة بين المتناقضات والمختلفات.

[بصائر ذوي التمييز 288/4 بتصرف]

والإمام الغزالي-رحمه الله- ممن أشادوا بفضل العقل، وآمنوا بسلطانه، وممن وسَّعوا مجال استخدام العقل، ورأوا ضرورة توظيفه في مجال الشرع، ولم يروا أن هناك تناقضا بين العقل والشرع، بل هناك صلة وثيقة بينهما، بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر، فهو لم يكن مغاليا في تقديس العقل، كما أفرط المعتزلة الغلاة، ولم يقدمه على الشرع فيما يجب أخذه عن طريق الشرع، مثل: العقائد الدينية، والأحكام الشرعية، والمسائل الخلقية، ولم يعول عليه، ولم يثق به عند التصدي للمسائل الغيبية، بل كان يؤكد دائما عدم قدرة العقل على الإحاطة بهذه المسائل، والإيمان بها من جميع جوانبها، بل إن للعقل حدودا، ينبغي عليه الوقوف عندها، وأنه لا يمكن إقامة العقيدة والأحكام الشرعية والمسائل الخلقية على العقل وحده؛ فالعقل لا يمكنه أن يُشرع، ويحدد القيم، ويطلع على عالم الغيب. يقول الإمام الغزالي-من ددا بجنوح الفرق المغالية عن مهيع الرشء، في جانب النقل أو العقل-: «وأنى يستتاب الرشاء لمن يقنع بتقليء الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف فيه صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر، فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر. أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر، وأن مجاله ضيق منحصر، هيهات قد خاب على القطع والثبات، وتعثر بأذيال الضلالات، ما لم يجتمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات» [الاقتصاد في الاعتقاد، ص2]

إن الحقيقة الإنسانية نسبية، محدودة بحدود مدركات الإنسان، سواء في الكشف عما هو كائن، أو في تقدير ما ينبغي أن يكون؛ لأن العقل يتحرك بالحس، وإمدادات الحواس محدودة زمانا ومكانا؛ فالعقل لا يشتغل إلا بموجب معطيات الحواس، والقوة العاقلة في الإنسان هي التي تجمع بين المصورة والذاكرة والمخيلة والذكاء، فتقوم بعملها تحليليا وتركيبيا وجمعا وتفريقا،

واستنتاجا للقواعد العامة والكلية. فوظيفة الحواس تنقل مشاهدتها في الكون مرئيا كان أم مسموعا، مشموما أم ملموسا أم متذوقا إلى العقل المصور فيصدر أحكامه بموجب بياناتها.

[العقيدة الإسلامية، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص 19 بتصرف]

التقويم

1. أحدد مصادر المعرفة وطرقها في الفلسفة الإسلامية؛
2. أبين وظائفها وأهميتها في بناء الحضارة الفكرية للمجتمع؛
3. أذكر حدودها في البحث والدراسة والاكتشاف.

الاستثمار

يقول الغزالي: «... وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل، وترتيب كلام، بل بنور قدذه الله في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة، ولما سئل رسول الله ﷺ عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى: ﴿بِمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَنْفَعِدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَكَ وَاللَّهُ سَلِيمٌ﴾ [الأنعام 125] قال: «هو نور يقذه الله في القلب»... فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان، ويجب الترصده كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها» [المعجم الكبير للطبراني، معجم محمد بن مسلمة الأنصاري].

[المنقذ من الضلال 86-87 بتصرف]

أبرز من خلال النص أثر التربية الروحية والصفاء القلبي في تلقي المعرفة وبنائها.

الإعداد القبلي

أبحث عن صفات الله وأقسامها مع الاستدلال بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على ذلك.